جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 48 / حزيران 2026

حوار المخلوقات في القرآن الكريم دراسة في أساليب الاستدلال الحجاجي (المقابلة الحجاجية انموذجا)

Discussion among creatures in the Holy Quran: A study in argumentative reasoning methods (The argumentative interview as a model)

الباحثة
أنسام عادل جاهل الخزعلي
Ansam Adel Jahel Al-Khazaali

أ.م.د مسلم مالك الأسدي
Prof. Dr. Muslim Malik Al-Asadi

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية
University Of Kerbala / College of Islamic Sciences

الكلمات المفتاحية: الحوار، المخلوقات، الحجاج، الاستدلال، المقابلة.

Key words: discussion, creatures, argumentation, reasoning, interview

الملخص:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحوار هو المبدأ الأصح في تغيير فكر الإنسان، لذلك انتقت هذه الدراسة محاورات قرآنية لتوضح قدرة الحوار على إيصال المتحاورين إلى الاقناع فالهداية؛ لأنَّ كل محاور يكون متسلحاً بالحجج التي تمكنه من هداية الطرف الآخر، وهذه المحاورات قد تعددت أساليبها الإبداعية،

ومع أنَّ هذه الأساليب جمالية تحسينية تضيف الزخرفة للخطاب، لكنَّها لم تكتفِ بذلك الحد؛ لأنَّ الإقناع هو غاية الخطاب القرآني وهذه الغاية قد تحققت في محاورات القرآن الكريم، وللكشف عن كل ذلك كان لابد من دراسة أحد هذه الأساليب الإقناعية التحسينية، وهو التقابل .

Abstract:

Praise be to God, Lord of the worlds, and prayers and peace be upon the master of messengers Muhammad and his family and companions

Dialogue is the most correct principle in changing human thought, Therefore, this study has selected Qur'anic dialogues to demonstrate the ability of dialogue to communicate the interlocutors to persuasion, as the guidance is because each interlocutor is armed with arguments that enable him to guide the other party These conversations have multiplied their creative methods Although these aesthetic methods of improvement add decoration to the speech, But it was not satisfied with this limit because persuasion is the goal of the Qur’anic discourse, and this goal has been achieved in the discussions of the Noble Qur’an, To reveal all of this, one of these optimistic persuasive methods, which is crossover, had to be studied.

المقدمة:

الْحَمْدُ للهِ عَلى ما أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغِ آلاءٍ أَسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، جَمَّ عَنِ الإحْصاءِ عدَدُها، وَنأى عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الإدْراكِ أَبَدُها، وَنَدَبَهُمْ لِاسْتِزادَتِها بالشُّكْرِ لِاتِّصالِها، وَاسْتَحْمَدَ إلَى الْخَلايِقِ بِإجْزالِها، وَثَنّى بِالنَّدْبِ إلى أمْثالِها.

وبعد: .

القرآن الكريم هو الكتاب المهيمن على كل حجة وبرهان فيه الادلة القاطعة التي تكشف كل زيف ووهم، فهو الكتاب المقدس الذي علم الناس كيف يفكرون، فيه من السحر والبيان ما جعل الناس يقفون حائرين متعجبين عاجزين امامه لذلك شرع الناس إلى دراسته، للوصول إلى الحقائق التي يجهلها الكثير، محاولين ابعاد الوهم والظنون والاشياء الدخيلة عليه، باستعمال نظرية الحجاج التي تبين الحقيقة بتقديم حجة ودليل وبرهان مستعملة اقواها لاقناع المتلقي بهذا الخطاب المبارك الموجه لكل أنسان والهادي للبشرية جمعاء، ومن اجل ذلك وقفت على بعض محاورات القرآن الكريم ودرستها دراسة حجاجية، مستخرجة الجمال الإيقاعي التقابلي الحجاجي في هذه المحاورات القرآنية.

فقد كانت مثالاً اتخذه هذا البحث لتطبيق الحجاج على النص القرآني، ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث الموسوم بـ (حوار المخلوقات في القرآن الكريم دراسة في أساليب الاستدلال الحجاجي (المقابلة الحجاجية انموذجا)) فدرست تحاور المخلوقات فيما بينها موضحة حجة كل محاورة والاخذ والرد والتحاور حتى الوصول إلى اقوى حجة.

سمت الحوار قد بلغت الغاية التي جاءت من اجلها في اذعان المتلقي وايضاح الصورة له في النصوص القرآنية كلها، وتتبعنا لهذه المحاورات المتوشحة بصبغة حجاجية كان اختيارا منا ان نقوم بدراسة الجانب الايقاعي التقابلي فيها.

واقتضى هذا البحث على ان تقوم بدراسة وتحليل (مجموعة من المحاورات القرآنية المباركة) وبيان الجانب التقابلي الحجاجي فيها، وتلاها خاتمة، وثم قائمة المصادر والمراجع التي أفاد منها الباحثان.

المقابلة القرآنية الحجاجية:

تستأثر المقابلة بأهمية كبيرة لدى الباحثين، لما لها من جمالية بيانية في نصوصها، فضلاً عن بيان الدلالات التي يريد النص إيصالها، ومن ثم يمكن من خلاله الكشف عن ومضة من ومضات اعجاز القرآن الكريم.

التقابل في النص القرآني يقع بين معانيه كما يقع بين ألفاظه، فيزيد الألفاظ لذّة واثارة، ويجعل المعاني أكثر قوةً ووضوحاً[1]؛ فالمقابلة ((إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة والمخالفة))[2]، فيأتي المتكلم بلفظين أو أكثر، متوافقين ثم بعدها يأتي بأضدادها[3]. وقد أدخلها جماعة في المطابقة وهو غير صحيح، فإنَّ المقابلة أعم من المطابقة وهي التنظير بين شيئين أو أكثر[4]، والطباق ما اتفق العلماء على أنه الجمع بين الشيء وضده[5].

وقد اهتم القرآن الكريم بالعبارة التناغمية التي تتعادل وحداتها الصوتية، وتتوافق من حيث الأوزان في انسجام تام مع السياق والمقام، فيظهر المعنى بأجمل أداء وهذا ما أدته الأضداد، وهي وظيفة تحسينية جمالية . وكذلك اخراجه بأبهى حلة من أجل إقناع المتلقي في الآية التي وردت بها الأضداد بعد التأثير بها[6].

إن التقابل يولد نتيجة ما يريده الخطاب، فالتقابلات بعضها يحتاج الى بعض للتأثير والأثبات؛ لأن المعنى قد لا يتضح إلاَّ بإيراد نقيضه، فالمتكلم يتوخى ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب بحيث يقابل الأول بالأول والثاني بالثاني[7].

((إن محسناً له حجاجي إذا كان استعماله، وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر، يبدوا معتاداً في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة. وعلى العكس من ذلك، فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب، فإن المحسن سيتم ادراكه باعتباره زخرفة.... ويعود ذلك إلى تقصيره عن أداء دور الإقناع))[8] وهذا هو الدور الذي قصده التقابل عند وروده في آيات القرآن الكريم فتأثيره واضح في تقوية المعنى وتأكيده مما يسهم في تجلّي الصورة التي تؤثر في المتلقي؛ لأن ((كل حجة تحوي نقيضتها، وهي بهذا تفسر المعنى المقصود وتكمله، وفي هذا تعزيز للطرح وسد لطرق الإنكار من أوجه كثيرة))[9].

وقد وردت الكثير من التقابلات في آيات الحوار منها قوله تعالى: **{ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) }**[10]، محاورة جرت بين النبي نوح عليه السلام وقومة فاستعمل النبي أسلوب الحوار معتمداً على البراهين، فكان ينتقل من برهان لآخر ولاسيما فيما يتعلق بإثبات البعث والنشور حيث أقام عليه دليلين هو الاستدلال بالخلق الأول والاستدلال بخلق السماوات والأرض[11]، حتى لا يتحول الحوار إلى جدل عقيم لا فائدة منه وجب أن يعتمد على الأدلة الواضحة والحجج الدامغة، فالنبي عليه السلام لما واجه كفرهم وعنادهم حاول أن يجعلهم يؤمنون فذكر البعث والنشور، والاستدلال بالخلق الأول، فذكّرهم بيوم المعاد، هو الذي خلقهم وانشأهم من العدم قادر على اعادتهم مرة أخرى[12]، ولكن شدة ألمه لعصيانهم جعله يتجه لله سبحانه وتعالى فيشتكي له كفرهم وطغيانهم وعنادهم...

وفي أثناء بث شكواه إلى الله سبحانه وتعالى ورد بناء تقابلي، ووجود هذا البناء في هذه المحاورة جعل هناك تركيزاً شديداً للصورة من المتلقي وبياناً واضح لخطوطها إذ إن المعاني هي الصورة الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان فكل شيء له وجود خارج الذهن، فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق ما أدرك[13]، وهذا ما فعله الحجاج في هذه المحاورة عندما جمع القرآن الكريم بين الإيمان والكفر.

فإن الجامع بين المتضادين مقصود؛ لأنه سبحانه وتعالى يبين حقيقة الكفر في الكافر وحقيقة الإيمان في المؤمن والتفريق بين الصالح والطالح والثبوت على أحداهما والتشويق الذي يقود القارئ إلى ترجيح أحد الطرفين وتأييده والانتصار له ذلك ((إن الضد يعرف بضده))[14]، وهذا التوضيح الذي بينه التقابل الحجاجي في هذا النص جعل مشاعر المتلقي تتناقض أيضا ما بين الرغبة والخوف في عرضة البشارة وهي بشارة الإسلام والأجر من جراء القيام بالعمل الصالح من المؤمن.

ويناقض ذلك الإنذار الموجه إلى من يأبى الانصياع لدين الحق، ويصر على ارتكاب الآثام ومعصية الله ورسوله هو انذار بسوء العاقبة في حالة استمرار الكفر والطغيان. وبهذا يكون قد أدى دوره بالتأثير في المتلقي ثم إقناعه بعاقبة ونهاية المخالفين والمعاندين وبيان منهج الإنسان في الحياة المرتبط ارتباطاً وثيقاً بإيمانه بالبعث والحساب، والجزاء والعقاب الذي ينتظره في الدار الآخرة عند الوقوف بين يدي الله تعالى، إذ لو اعتقد الإنسان أن الدنيا هي نهاية المطاف، لحرص على أن يستمتع فيها بكل أنواع المتاع دون المبالاة بحلال أو حرام، فما الذي يردعه عن الظلم والبغي والغش...[15]

إن القرآن الكريم في تقابلاته الجمالية ((يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية))[16] والفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس. وبهذا نجد التأثير الذي أضافه التقابل لقوله تعالى: **{ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) }**[17]. في هذه المحاورة التي تعد صراعاً وتحدياً بين الحق والباطل، يصوره القرآن الكريم كأنها مشهداً نبصره، سحر العيون ورهب القلوب، ويخيل

إلى الكثيرين أنه غالب وأنه جارف، وأنه محيق! وما هو إلاَّ أن يواجه الحق الهادي الواثق حتى ينفثئ كالفقاعة وينطفئ كشعلة الهشيم ! وإذا الحق راجح الوزن ثابت القواعد عميق الجذور، وما عداه فهو ذاهب ولم يعد موجود[18].

يتضح انتصار الحق من خلال إن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يلقي ما في يمينه وهي عصاه فرماها والقاها فتحولت إلى حية لها حيويتها وسرعتها تلقف وتأكل وتبتلع ما قد كذبه وزوره سحرة فرعون من أفك السحر[19]، ومخايلة له ذلك ((أن سحرة فرعون ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات ملأت الوادي وركب بعضها بعضاً، فلونوها وجعلوا فيها زئبقاً فلما أثر تسخين الشمس فيها تحركت والتوى بعضها ببعض فتخيل الناس ما تخيلوا، ولما قابلهم موسى عليه السلام بإلقاء عصاه بوحي من الله عز وجل حية كبيرة تبتلع ما عملوه وأقبلت على الحاضرين فهربوا وأزدحموا))[20].

التقابل الحجاجي يأتي في هذه المحاورة ليؤيد نصرة النبي موسى عليه السلام ونصرة الحق على الباطل، والأكثر جمالاً في هذه الصورة هو استعارة لفظ الوقوع للحق مع إن الوقوع يعني (سقوط الشيء من أعلى إلى الأرض)[21]، فوجود الوقوع هنا دلالة على حدوث أمر رفيع والذي وضحه وجود التقابل الذي جاء بعد الوقوع بقوله (بطل) فالتأييد الإلهي الذي شبه بأنه شيء نزل من علو كأنه يريد أن يقول بأنه نزل من السماء من الخالق إلى المخلوق لينصره.

إن التأثير الذي تتركه الموازنة بين الضدين كشف للمتلقي ما هو حسن وما هو سيء فيفضله[22]، كما في قوله تعالى: **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ}**[23]، هذه الآية المباركة توضح كلام النبي مع المشركين عندما كذبوا واستهزئوا واستعجلوا عذاب الآخرة، فقال لهم الله تعالى على لسان نبيه الكريم: اخبروني ما أنتم صانعون، إذا نزل بكم العذاب وأنتم إيقاظا أو نياماً فهل تقدرون على دفعه والخلاص منه؟ إذا لا مفر منه[24]

التقابل موجود في لفظتي بياتاً ونهاراً، هذا التقابل جعل التداعيات النفسية والذهنية لدى المتلقي تمهد له نتيجة واحدة وهي إن الله تعالى قادر على الظفر بالكافرين في أي وقت وفي أي زمان ومكان، فالتقابل دعم حقيقة الخطاب وأصبح حجة ذات بعد زماني، فحتى وإن كنتم في بيوت محمية وفي أزمنة مختلفة فإن الله تعالى سيظفر بكم بأي وقت أراد[25]

أن الدلالة في المقابلة وسر أسلوبها تجعلها توضح مفاجأة معينة أراد معرفتها المتلقي من الكلام لأن التقابل يكون معززاً للحجاج[26]، بكون العلاقة الظاهرة والباطنة بين المتقابلين تكون هي الأساس التي يريد الحجاج إيضاحها للمتلقي وبيان خفاءها.

يقول تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: **{ وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين}**[27]. بما أن أسباب المرض كثيرة فقال مرضت ولم يقل أمرضني لأن هذه الأسباب كثيراً ما تحدث نتيجة لإهمال الإنسان بجانب معين كأن يكون الإفراط في طعامه وغيرها ولذلك نجده هو السبب في الإصابة ببعض الأمراض التي قد أُصيب بها[28]، وقد قابل لفظة المرض بالشفاء، وكذلك قابل بين الإماته والأحياء فهو مؤمن بالله، مؤمن بأن

الموت والحياة بيد الله سبحانه وتعالى، فعندما قابل بين الموت والحياة أوضح إن الإنسان سيبعث من جديد[29] فالعلاقة بين هذين الضدين علاقة قوية بحيث أدى استدعاء أحد الضدين استدعاء اللفظ والمعنى وحتى الجرس، وأوضح للمتلقي أنَّ الله سبحانه وتعالى متصرف بشؤونهم بأدق تفاصيل حياتهم، فعظيم رحمة الله تشمل عباده كيفما كانوا، وقيمة عمل العبد تحدد ما سيكون عليه الإنسان وإن اخطأ وتكبر فلا بد أن تعود الروح لتصفو مع بارئها في أحلى لحظات العودة، هي التي تكون إلى الله تعالى، والله في قلب من يعرفه، يغطي بخيمة الحب الرباني كل من يعاني الحرمان، وكل من أعياه الوصول وعاش الموت بصورة غير قطعية.

ومن تقابلات القرآن الكريم في آيات الحوار قوله تعالى:**{يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور}**[30].

يوجه لقمان ولده في هذه الآية المباركة إلى كيفية طاعة الله سبحانه وتعالى وتكون الطاعة بالتوجه إلى الله تعالى من خلال الصلاة، فهي طريق الوصول إلى الله ومناجاته، ويسترسل بنصح ولده فيدعوه إلى أن يأمر بالمعروف ويوجه الناس إلى الله ويدلهم عليه، وبالمقابل عليه بالصبر لأن دعوة الناس ليس بالأمر الهين[31].

جاء التقابل في (أمر) (أنه) وبين (المعروف) (والمنكر) و (الباء) (عن)، هذه التقابلات، وهندسة البناء التي جاءت بها هذه المحاورة من ذكر الشيء ونقيضه أرادت أن ترسخ معايير ثابته، فالصلاة تجديد للحظة إيمان تطمئن بها النفوس، والصبر والتعامل مع الدعوة إلى الله تعالى بجدية وصرامة، مستعداً لبيان لب العقيق الذي عجز الناس عن رؤيته.

إنَّ هذا المحسن البديعي الذي يعداً جزء من تركيب الكلام ونظمه وجوده في النص القرآني يسهم في توضيح المعنى وخلق جو من التأثير الإيجابي[32]. وقد ورد في قوله تعالى: **{ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ}**[33].

في هذا النص الكريم مفاتيح كثيرة وأولها هو الحوار فهو يساعد المتلقي على معرفة البواعث النفسية والعقلية والشعورية بين المتحاورين، فالمحاورة كانت بين شخوص عديدة متمثلة بالنبي سليمان عليه السلام ومن معه من جنوده من الإنس والجن والحيوانات وكذلك مع بلقيس ملكة سبأ، احتوت هذه المحاورة على فن بديعي إيقاعي وهو التقابل في قولة: ((أَتَهْتَدِي)) ((لا يَهْتَدُونَ)) يحاور النبي سليمان عليه السلام من معه بأن يجعلوا عرش بلقيس متغيرا عما تركته بعدما قاموا بحمله واحضاره إلى سليمان عليه السلام فهل تهتدي بعدما ترى تلك المعجزة البينة من تقدم عرشها وقد خلفته واغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس أم لا تهتدي بذلك[34]، فجاء الطباق السلب للأثبات والنفي في الهداية وهذا الطباق قد أرضى العقل والعاطفة لأنه يخاطبهما بالمتضادين فجمع بين الحق الذي يهدي الناس بما فيه من حجج وبراهين وبين الجمال الذي يصور أن الحب يكمن في هداية الله للناس هو قادر على هداية من يشاء من خلقه[35].

وفي هذه الآية الكريمة أثبات للمتلقي على قدرة الله سبحانه وتعالى، والمعجزة التي قام بها النبي سليمان عليه السلام ومن معه بتأييد من الله إنما هي لهداية من أراد الله هدايته. وكذلك ورد التقابل في ((مُسْلِمِينَ))

((كَافِرِينَ)) عندما أمتثلت بلقيس أمام سليمان عليه السلام سألها أهذا عرشك ؟ فكان جوابها دليل على ذكائها ورجاحة عقلها فقالت ((كأنه هو)) لم تنفي أو تثبت بأنه هو نفسه عرشها، ومع تميزها بالعلم والحضارة والذكاء إلاَّ إن قوم سليمان عليه السلام قد سبقوها بالعلم والحضارة والإسلام، فقد ذكروا في هذه المحاورة فضلهم عليها من جهة الدين فهي قد نشأت في قوم كافرين وقد كانت تعبد إلهاً غير الله سبحانه وتعالى[36].

بما إن الكلام المبهم يكثف زبد الظنون، إلاَّ إن الكلام المحتسي لغة التضاد قد أذابه، فالتقابل الحجاجي قد أوصل المتلقي إلى نقطة مهمة عندما طابق بين الإسلام والكفر وهي أن يبين حكمته في الجمع بين الضدين ليفرق بينهما بأن الدين هو الإسلام وغيره من الديانات السماوية يعد ممهداً له، وبهذا يكون الطباق قد جعل المتلقي يرجح أحد الطرفين ويؤيده بعدما قد جاء مع الإسلام العلم والحكمة، فهم مع إسلامهم كانوا ذوي حضارة وعلم وحكمة . أفضل من غيرهم من الأمم، فضلاً عن ذلك فقد أوصلت هذه المحاورة المتلقي إلى أهمية الوحدة والآخذ بالرأي والنصيحة والمشاورة عند القيام بأمر ما، لأن القوة تكون بذلك، فضلاً عن العلم والحكمة فكل ذلك يساعد على زيادة القوة وبناء حضارة عريقة كما هو الحال بحكم سليمان عليه السلام، وكذلك إنها قد بينت للمتلقي إن الله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء وقادر على هداية من أراد أن ينكشف له كل مغلف، فتعرى فكره من الظنون و أنمسح هذيان الريبة، واتجه بترنيمة الندم إلى الله فتكون طريق لهدايته...

وورد التقابل الحجاجي في محاورة ملك مصر وقومة عندما قص لهم الرؤيا **{وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ}**[37]. بدأ الملك يقص على الملأ رؤيا عجيبة شاهدها في منامه، وهي إن سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف هزيلة أبتلعن السمان، وسبع سنابل قمح خضر ويابسات، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبت عليها، وطلب منهم أن يفسروا له رؤياه فكان جوابهم إنها أحلام غير منتظمة ولا يعرفون تفسيرها[38]. فنجد التقابل يرسم صورة غريبة إذ به يجعل اليابس يأكل الأخضر والعجاف تأكل السمان، وهذه الرؤيا كان الهدف منها هو إخراج النبي يوسف عليه السلام من السجن الذي كان فيه، عندما يريد الله أن ينجي عبده فأنه قادر على ذلك، والرؤيا التي رآها الملك وعدم قدرة أتباعه على معرفة تأويلها إنما هي أمر مدبر من الله سبحانه وتعالى لنجاة عبده ورسوله وله في ذلك حكمة، فقد جعل نجاته بالمعجزة التي تميز بها عن غيره وهي تفسيره للرؤيا والحجة التي جاء بها الطباق عندما رسم صورة مخالفة للواقع إنما أراد أن يمهد لمعجزة النبي يوسف عليه السلام في تفسير الرؤيا، فضلاً عن حكمته وعلمه الذي تميز به فهو قادر على أدارة أمور البلد اقتصادياً وبالتالي إنقاذهم من الحالة التي كانوا سيتعرضون لها لو تجاهلوا هذه الرؤيا، و كانت خطته لنجاتهم هي في قوله تعالى:{ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}[39].

وقد ورد التقابل الحجاجي في قوله تعالى: **{ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا**

الضَّالُّونَ(56)}[40] يذكر الله عز وجل في كتابه الكريم المحاورة التي جرت بين ضيوف إبراهيم الخليل عليهم السلام من الملائكة، فكان بداية دخولهم عليه أنهم ألقوا عليه السلام، وقد جاءوا إليه وهم على هيئة بشر، إلاَّ أن النبي عليه السلام كان خائفاً منهم . وعلى اختلاف أسباب الخوف إلاَّ إن النتيجة أنه كان وجلاً قلقاً منهم، وما كان من الملائكة إلاَّ إن يبشروه بإمر الله سبحانه وتعالى وبشارته، لكي ينهوا هذا الوجل الذي كان ينتابه[41]، وما كان من النبي إبراهيم (عليه السلام) إلاَّ إن يتعجب ويستنكر البشارة وهو بعمر كبير، فهذا الشيء مخالف للعادة، عادة البشر في الانجاب فهو كبير بالعمر وأمراته عاقر، إلاَّ أن الملائكة يردون عليه بأن لا يأس من رحمة الله، فهو القادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين فكيف بجعل الرجل العجوز والمرأة العاقر يلدان، ولا تكن من الذين يخطئون طريق المعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته فهو القادر على أن يقول للشيء كن فيكون[42].

هذه المحاورة وبما احتوت من فن إيقاعي حجاجي وهو التقابل الذي ورد بموضعين في هذه المحاورة بقوله)): وجلون ـ ولا توجل)) و ((فلا تكن من القانطين ـ يقنط)) أريد منه هو بيان أن الأنبياء بما يملكون من علم ومعرفة لا يملكها غيرهم من البشر إنما هي مشروطه بإذن الله سبحانه وتعالى، فكل ما يملكون هو من عند الله وبأمره ولهذا وجدنا تعجب الانبياء من بعض ما تعرضوا له وهذا لا يتعارض مع إيمانهم وتوحيدهم، ولا تضاد بين العصمة الإلهية للأنبياء وبين التحذيرات والتنبيهات الإلهية (فلا تكن من القانطين)، فالذي يؤمن بعلم لله تعالى وقدرته ورحمته لا يمكن إن يتداخل اليأس أو القنوط إلى قلبه بأي شكل من الأشكال، واستنكار النبي إبراهيم عليه السلام لم يكن قنوطاً من رحمة الله بل استبعاداً له في العادة التي أجراها الله[43] فلو حدقنا مليّا في هذه المحاورة لوجدناها قد بينت للمتلقي رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، وهي تعد مثالاً لرحمة الله التي شملت الإنسان منذ الخلق إلى الفناء وما بعده.

وقد يظن الإنسان أنه قد أكتهل فلا فائدة منه وهو على بعد أنفاس من بحر النهاية، والطريق قارب منتهاه، فلا مأوى ينجيه، ولا شيء سيتغير، فهذا الذي رُسِمَ له سيتحقق، فقط أنه سيكمن في التراب بذوراً إلى يوم النشور، وستبقى العادة التي رسمها الله له كما هي، إلاَّ إن هذه المحاورة تنفي كل تلك الظنون وتفك طلاسم اليأس بدليل هذه الآية لأن في الدعاء والصبر المقرونتان بالإيمان بالله وأتباع أنبياءه، قد يغير ما ظن الإنسان أنه هو هذا قدره قد سجل له ولا يمكن تغييره. وأن أوشك نَفس الإنسان إن يكف عن الشهيق، وإن قارب الطريق أن ينتهي، فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل المحال ممكناً، وعلى الإنسان أن لا يكون عجولاً **{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ}**[44] بالصبر والإيمان سيتحقق المحال والله تعالى قادر على ذلك **{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[45] وأن كان الله تعالى خفي عن أعين البشر **{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ}**[46] محجوب عن الأدراك إلاَّ إنه يعلم بما يمر به عباده {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[47] عليم بأمور خلقه {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ}[48] فهم لهم أن يعملوا ما يجلب النفع ويدفع الضرر عنهم وهو بالدعاء والطاعة سيستجاب لهم.

وقد جاء التقابل القرآني في هذه المحاورة مؤكدا لهذه القدرة والرحمة الإلهية وداعماً لها من خلال أنه جعل المتلقي يميز بين الضدين ويرجح أيهما أكثر فائدة له.

ومن رحمة الله بعباده أنه يرسل إليهم الرسل لهدايتهم . ورحمته برسله أنه مؤيد لهم و ناصر، باعد عنهم أذى القوم الكافرين ومثالاً لهذه الرحمة متمثلة بقوله تعالى: **{ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ}**[49]. هذه المحاورة حدثت في قرية أنطاكية عندما أرسل الله سبحانه وتعالى رسله إلى أهل هذه القرية لهدايتهم، لأن الناس قد ضلت الوجهة، واتبعوا الشيطان في الضلالة، فهم يعيشون في تخوم من مجاهيل مغلقة، لذلك فقد كان هداية الخلق أمر يوجبه العقل فضلا عن الشرع، وأرسال الرسل مع المعجزات هو لهدايتهم إلى الطريق الصحيح، فقد أوجب الله سبحانه وتعالى على نفسه هداية خلقة **{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى}** وهذه هداية البلاغ لا هداية التوفيق لو كانت هداية التوفيق لاهتدى كل الناس[50].

أُرسلت الرسل وقاموا بهداية الناس بإمر الله واخبروهم بإنهم مرسلون من الله الرحمن الرحيم، ولكن أهل القرية زادوا من غلالة الشك في قلوبهم وعقولهم، وبدأوا يتذرعون بالحجج الواهية لكي يرفضوا طاعة الرسل فقالوا لهم: لا يعقل أن تكونوا رسل فلا اختلاف ولا تمييز بيننا وبينكم، فقد ظنوا أهل القرية أن الرسالة تتنافى مع البشرية، فلكي يكونوا رسلاً يجب أن يتميزوا بالقوة والغنى.. متجاهلين النواحي النفسية والروحية التي ميز الله تعالى بها الأنبياء والرسل على غيرهم من البشر[51].

جرت المحاورة بأسلوب الاستثناء المفرغ[52]، مع أسلوب النفي الذي هو عبارة عن أنكار وكفر ومكابرة دون علم أو دراية[53]، فهذا أسلوب القصر بالنفي والاستثناء إنما هو تأكيد على إصرارهم وعنادهم، ويأتي التضاد ليؤدي دوراً مميزاً جداً فقد أنتصر المرسلون إذا يردون على الكفار نحن لا ندعي ذلك والكذب ليس من صفات الأنبياء والرسل، ويستعملون أكثر من مؤكد لكي يرجحوا هذه الكفة، فيقسمون بالله ثم يستعملون التوكيد بأن واللام وأسمية الجملة كل ذلك للتأكيد على دعواهم والرد على الكفار[54] الطرف الأول ((كاذبون)) قد انتفى من خلال الطرف الثاني ((مرسلون)) قد بطلت الحجج جميعها التي أدعوها أهل القرية على المرسلين.

ليس هنالك مماثلة بشرية، والبشر يختلفون عن بعضهم البعض بإنسانيتهم، فالمماثلة البشرية ليست لزامها المماثلة بكل الميزات البشرية والروحية، والمماثلة بين البشر هي مماثلة خاسرة حاسرة فمقارنة الإنسان نفسه بغيره غير ممكن لأن قضية الربوبية الحكيمة هي عدم التسوية بين البشر فهم على اختلاف بالاستعدادات والقابليات والفاعليات، وأرسال رسل من جنس البشر هو لدحظ الحجج التي سيطلقونها لو كان الرسول من جنس الملائكة أو أي جنس آخر، فهو من جنسهم لكنه متبني الرسالة الإلهية متحمل مشاقها في سبيل هداية من أظله الشيطان عن الطريق المستقيم[55].

الخاتمة:

المقابلة تعد ذات قيمة حجاجية ولكن في حالة تحقق إذعان المخاطب، أو المتلقي، كأن تكون قد أحدثت تغيير في موقفهُ أو وجهة نظره أو حتى أثرت فيهُ وأوضحت له الغاية المطلوبة من مخاطبته، ولكن إذا كان وجودها لم يساعد في أحداث ذلك.

فحق أن تعد من قبيل الزخرف لا غير، ولكن هذه السمة كانت موجودة في آيات الحوار التي درسناها فكل محاورة بما احتوت من مقابلات أدت الغرض الذي وردت لأجله وهو كسب إذعان المتلقي وأوضحت الأفكار المغلفة التي لربما في لحظة من اللحظات ظن الإنسان أنَّ هذه النصوص المباركة كأنَّها وادٍ غير ذي زرع، مبتعداً عن زمزم هذه المنبهات تاركاً أفكاره في قبر ضئيل، متجاهلاً هذه الأفاق التي تجول أمام ناظريه وبجنبه....

الهوامش:

(1) ينظر: التقابل اللفظي في القرآن الكريم دراسة دلالية: 3

(2) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: 346.

(3) ينظر فن البديع: 49.

(4) ينظر: خزانة الأدب:2\72. 73..

(5) ينظر: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر : 316. وتحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر:179. واعجاز القران: 81.

(6) ينظر: الحجاج في آيات الاحكام: 176..

(7) ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر:179.

(8) التداولية والحجاج مداخل ونصوص:51.

(9) البعد الحجاجي في الاعمدة الادبية (مجلة دبي الثقافية نموذجا) :158.

(10) سورة نوح: 15 . 22

(11) ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: 217

(12) ينظر: تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن:571.

(13) ينظر: منهاج البلغاء وسراج الادباء: 120.

(14) البديع تأصيل وتجديد: 181.

(15) ينظر: البعث والنشور: 412 . 415.

(16) التصوير الفني في القرن: 141.

(17) سورة الأعراف: 113– 118.

(18) في ظلال القرآن: 9\38.

(19) جامع البيان في تفسير القرآن:9\15

(20) مواهب الرحمن في تفسير القرآن:4\14.

(21) معجم مقاييس اللغة: 6\164.

(22) ينظر: دراسات في البلاغة: 15.

(23) يونس: 50.

(24) ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:4\167.

(25) ينظر بلاغة الخطاب وعلم النص: 55

(26) ينظر: خصائص الاسلوب في الشوقيات: 121.

(27) الشعرء:8.

(28) ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: 762.

(29) ينظر: في ظلال القرآن:5 \2603.

(30) لقمان: 17.

(31) ينظر: في ظلال القرآن: 5\2789. و تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:837.

(32) ينظر: تجليات الحجاج في الخطاب النبوي دراسة في وسائل الاقناع الاربعون النووية ـ انموذجا: 193.

(33) النمل: 42.

(34) ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:784.

(35) ينظر: الطباق في القرآن الكريم دراسة بلاغية:97.

(36) ينظر: تفسير التحرير والتنوير:19 \274. و تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: 784.

(37) يوسف:43.

(38) ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: 518.

(39) يوسف: 47 ـ 49.

(40) سورة الحجر: 51. 56.

(41) ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:562. وتفسير النور:4\452. وتفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب: 7\ 133.

(42) ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:562.و تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب: 7\133ـ 134.

(43) ينظر: وتفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: 562. تفسير النور:4 \452.

(44) هود: 9.

(45) هود: 4.

(46) الانعام: 103.

(47) الانعام: 101.

(48) الانعام: 3.

(49) يس: 15 ـ 16.

(50) ينظر: تفسير القرآن الكريم سورة يس: 59.

(51) ينظر:المهذب في تفسير سورة يس: 116.

(52) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 22\362.

(53) ينظر: تفسير القرآن الكريم سورة يس:58.

(54) ينظر: المهذب في تفسير سورة يس: 117.

(55) ينظر: الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة: 23\29. 31.

المصادر والمراجع: